الفصل الثالث :
المصادر النظرية للمصطلحات

مجموعة المصطلحات الواردة في هذا العمل مصادرها النظرية عديـدة ومتنوعـة، أهمها:

1 – التاريخ الأدبي (مصدرها أعمال جوستاف لانسون).

2 – اللسانيات (مصدرها أعمال فرديناند دي سوسير).

3 – الشعرية (مصدرها أعمال رومان جاكبسون).

4 – البنيوية الشكلية (مصدرها أعمال رولان بارت).

5 – علم اجتماع الأدب (مصدرها أعمال لوسيان جولدمان).

6 – النقد النفسي (مصدرها أعمال شارول مورون).

7 – النقد الموضوعاتي (مصدرها أعمال باشلار).

8 – النقد التفكيكي (مصدرها أعمال جاك دريدا).

من الجلي أن المصدر النظري لمصطلح التاريخ الأدبي المعاصر هو أعمال جوستاف لانسون (1857 - 1934) تلميذ برونتيير، وعمل مساعدًا له في السربون، وتبنى وجهة نظره في كتاباته الأولى التي ظهرت في القرن السابع عشر. لكنه سرعان ما استقل عنه ووضع أولى مؤلفاته حول تاريخ الأدب الفرنسي : "Histoire de la littérature francaise" الذي نشره عام 1894 وهذا العمل تميز بالنزاهة والموضوعية، كالعمل الذي نشره في عام 1898 تحت عنوان Corneill (كورناي) والذي تلاه بدراسة اطلق عليها اسم فولتير Voltaire نشرت في عام 1906.

وقام لانسون Lanson فيما بعد بعمل فهرسة للأدب الفرنسي منذ القرن السادس عشر. وهو لا يتفق مع النظرة العلمية المتطرفة التي كان ينادي بها في القرن التاسع عشر من اعتبار الأدب أو التاريخ الأدبي مكومًا بقوانين معينة، وكانت أفكاره المنهجية تنهض على أساس فكرة جوهرية تتمثل في أنهلا ينهض علم على مبادئ علم آخر، إذ إن تقدم أو تطور العلوم قائم على أساس استقلال كل منهما في مضماره. فهذا الاستقلال يسمح لكل علم أن يحقق أهدافه.

وكان لانسون في عمله يبغض التحيز ويفضل وجهات النظر المتعددة حول عمل أو مسالة ما. وكان دراسته تنهض على أساس معرفة النصوص الأدبية ومقارنتها ببعضها البعض من حيث الطابع الفردي أو الجماعي، أو من حيث الأصالة والتقليدية أو من حيث المدرسة أو الحركة التي تنتمي إليها، وعلاقة كل هذا بالحياة الثقافية.

ويلاحظ الباحثون على منهج لانسون أنه كان يتضمن بعض عناصر التأثيرية، على أساس أن الاستمتاع بالأدب هو الشيء الجوهري الذي ينطلق منه أو يؤسس عليه أحكامه.

لقد هاجم لانسون في عصره بعض الكتاب والنقاد أمثال شارل بيجي Paguy الذي رأى أن لانسون في علاجه لتاريخ الأدب يتجاهل النصوص الأدبية، ويشرحها من خلال عوامل خارجية بعيدة عن الفرد المبدع.

أما المصدر النظري الثاني لمفهوم ومصطلح اللسانيات فهو أعمال العالم اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير (1857 - 1913) فقد كان ظهور عمله (محاضرات

في علم اللغة) عام 1916 بداية تحولات جديدة في ميدان العلوم اللسانية بخاصة والعلوم الإنسانية بعامة.

وأبرز مبادئ دي سوسير هو ضرورة التفرقة بين اللغة والكلام. الأولى نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، والثانية فعل فردي يقوم به شخص مع آخر. والصلة بين اللغة والكلام كالصلة بين الجوهر والثانوي. وأن اللغة تتكون من نسق عضوي نظم من العلامات وأن العلامة عبارة عن اتحاد بين صورة صوتية (وهي الدال Signifian وتمثل ذهني أو تصور يتمثل في المدلول Signifié، والدال يصنف تحت النظام المادي لأنه عبارة عن أصوات أو إيماءات أو صور معينة، بينما المدلول يصنف تحت النظام الذهني لأنه يحدد عن طريق المحتوى أو المضمون أو الفكرة أو المعنى.

وعلى هذا الأساس لا يمكن فصل الصوت عن الفكر. ولقد ذهب سويسر إلى أن مهمة عالم اللغة هي تحديد نظام نوعي خاص لوقائع السيميولوجيا (العلم الذي يدرس حياة العلامات في ظل الحياة الاجتماعية). والملعوم أن هذا المضمار الدراسي قد عرف تطورات مهمة على يد كل من بارت وبريتون ابتداء من عام 1930.

ولم تقتصر أفكار دي سوسير على التفرقة بين اللغة والكلام، أو بين الدال والمدلول، بل أقام تفرقة أخرى بين اللغويات الداخلية واللغويات الخارجية، الأولى دراسة لعلاقات العناصر ببعضها والثانية دراسة للعلاقات القائمة بين اللغة وبين العناصر المؤثرة عليها كالحضارة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع . . . إلخ.

أما المصدر النظري لمفهوم ومصطلح النقد الموضوعاتي هو أعمال غاستون باشلار Gaston Bachlar (1994 - 1962)، وأبرز هذه الأعمال كتابه المسمى "La formation de lésprit scientifique" (تشكيل الذهن العلمي) الذي يحاول الجمع فيه بين العلم والعر في ذات الحدث تجاه الإبداع الإنساني، وفي ذات الزمنية بإعطاء معنى للكون.

والاتجاه عند باشلار ينهض على أساس نقد للخيال وعلى أساس القراءة المرتكزة على التحليل النفسي. وهذا التصور يحول المعنى والشكل من خلال عمل خيال مستمر

والناقد أو الباحث في هذا الاتجاه يرتكز على الفلسفة كأساس، رغم التصاقه بالنص، وتوضيح العلاقة بين الحياة والقول، باعتبار أن الأدب هو مغامرة كينونية (حسب رأي باشلار) وقد هاجم هذا الاتجاه النقد الجامعي الذي يرى أن المقد الموضوعاتي لا يهتم بالعلم وكذلك النقد الشكلاني الذي تساءل حول صلاحية التحليل الموضوعاتي بالنسبة لمفهوم "الأدبي" والنقد الماركيني الذي يعترض على أن النقد المداري لا يهتم بتحديد موقع الإنسان بالنسبة إلى المكان أو الزمان الواقعيين وليس الأدبيين.

والنقد الموضوعاتي (المداري) يركز اهتمامه على المضمون ويتجاهل الأسلوب. ويجعل المؤلف هو موضوع النقد. ولقد اقتبس باشلار من أرسطو تمييزه بين العناصر الأربعة التي تتحكم في بعض أعماله خاصة عمله المسمى "التحليل النفسي للنار" المنشور عام 1937، وعمله المسمى "التراب وأحلام يقظة الراحة" المنشور عام 1948.

واستطاع باشلار أن يحدد ثوابت نفسية توضحها العلاقة التخيلية بين المبدع وعمله.

ويعتبر باشلار أن الخيال دينامية منظمة. فبالنسبة إليه لا تعتبر الصورة صالحة بحد ذاتها بل بشبكة المعاني التي تنشرها في النص.

أما المصدر النظري لمفهوم ومصطلح النقد النفسي فهو أعمال شارل مورون الممثلة في الدراسة التي أجراها على الشاعر الفرنسي مالارميه في عام 1941، والدراسة التي أجراها على الشاعر راسين في عام 1957، والدراسة المهمة المسماة "من الاستعارات الملحة إلى الأسطورة الشخصية" في عام 1962، ثم ختم جهوده بعدة دراسات مهمة نذكر من بينها مؤلفه المرسوم "النقد النفسي للفن الكوميدي" الذي صدر عام 1964، ومؤلفه المرسوم "فيدر" الذي صدر عام 1968.

هذه الدراسات كانت مساهمة قيمة في مضمار النقد الأدبي من جهة والتحليل النفسي من جهة أخرى. فقد عمقت فهمنا لدور مخبآت اللاشعور في تشكيل العمل الأدبي، وقد تجلت قيمة أعمال مورون حين ظهر له كتابه المسمى "من الاستعارات الملحة إلى الأسطورة الشخصية". فقد فطن النقاد والمحلول النفسيون إلى أعماله

التي تعد بحق بمثابة مساهمة جديدة في مجال النقد النفسي نظـرًا لأنـها تدعـو إلـى ارتياد عالم العمل الأدب باعتباره ظاهرة فنية لغوية، لا وثيقة معرفيـة، وهـذه الدعـوة جعلت من موروت ينضم إلى صفوف أعضاء المدرسة الجديدة للنقد الأدبي المعاصر.

وقد وجد مورون في نصوص الشاعر الفرنسي مالارميه مجـالاً خصبًـا لتبطيـق فغهمه ومفاهيمه باعتبار أن هذه النصوص تتضمن تداعيات من المعـاني وتيـارًا مـن العواطف والتعابير تدور حول حصار فكرة الموت عند الشاعر وإصابته بعقدة أوديب.

والجديد لدى مورون أنه أعطى الصدارة للنص الأدبي عوضًا عن الاهتمام بأسرار آليات اللاشعور بوساطة مذكرات الشاعر الخاصة والشهادات أو الخطابات التي تركها بعد موته.

وقد طبق مورون منهجه هذا على عدد آخر من الشعراء من بينهم بودلير وراسين وغيرهما. وحجر الزاوية في هذه الأعمال هو الربط بين اللغة والنص من جهة وآليـات اللاشعور من جهة أخرى.

أما المصدر النظري لمفاهيم ومصطلحـات البنيويـة الشـكلية فـهو أعمـال رولان بارت (Barthes) فقد جعل من موضوع العلاقة بين لغة العمل الأدبي وشكله، دراسـة موسعة على ضوء الفاهيم الأنثروبولوجية واللغوية من جهة والنقد الأدبي مـن جهـة أخرى بقصد الكشف عن المعاني الخفية للعمل الأدبي، الذي يراه بارت يتضمن معاني ورموزًا متعددة يجب التركيز عليها وإبرازها ليعنق فهمها للعمل الأدبي.

وبارت منذ ثلاثينيات القـرن العشـرين وهـو يتـابع أبحاثـه العلميـة فـي ميـدان الدراسات النقدية من جهة وفي ميدان السيميولوجيا مـن جهـة أخـرى. وقـد عرفـت الشهرة طريقها إليه عام 1952 حين ظهر له كتاب تحت عنوان "درجة الصفر للكتابة" في حوالي 100 صفحة، جمع فيه عددًا من الأبحاث والمقالات، تناولت إشكالية الكتابة وأنماطها، ومنذ ذلك التاريخ والأوساط الثقافية تعتـبر ذلـك المؤلـف مسـاهمة نقديـة جديدة ومرحلة مهمة من مراحل النقد الفرنسي المعاصر تضم صاحبـه إلـى الحركـة البنيوية النقدية الداعية إلى ارتباط عالم الأثر الأدبي على ضوء طبيعة لغتـه الرمزيـة، والتخلي عن واقعه وعناصر خيالاته.

وبارت أعطى الصدارت لبنية العمل الأدبي على مضمونه. ودعا إلى البحث في ماهية العلاقة بين الأثر الأدبيس ولغته، ومعنى ذلك أنه لم ينطلق من إشارة بعض المشكلات الجزئية المرتبطة بالنزعة البنيوية، بل مضى إلى صميم ماهية لغة الأثر الأدبي لمحاولة العمل على تأسيس المجال اللغوي للأثر باعتبار علمًا، مستندًا في ذلك إلى نتائج العلوم الإنسانية والأنثروبولوجية عامة، واللغوية خاصة، بقصد إلقاء الضوء على الدلالات الخفية التي تكمن وراء بنيات العمل الأدبي.

وبارت قد انطلق من اللغويات ووقع تحت تأثير الانثروبولوجيا وأخذ بفكرة النماذج ليخلص النقد من النزعات الجمالية والميتافيزيقية وراع يدعم النقد بدعائم منهجية مستوحاة من مناهج اللسانيات من أجل الوصول إلى أكبر قدر من الصرامة العلمية

وقد طبق بارت منهجه هذا على القصة (مقدمته في التحليل البنائي للقصة) والأسطورة وقصة بلزاك المسماة "سراكين".

أما المصدر النظري لمفاهيم ومصطلحات علم اجتماع الأدب الحديث فهو أعمال لوسيان جولدمان Goldmann فقد أسس الاتجاه الاجتماعي للأدب على دعائم بنيوي علمية سمحت لها أن يحرر هذا الاتجاه من طابعه الأيديولوجي الذي كان يسيطر عليه قبل ستينيات القرن العشرين. ويمكن أن نعتبر جهود جولدمان مظهرًا من بين مظاهر تأسيس نقد سوسيولوجي للأدب ذي طابع علمي. لا أيديولوجي، رغم أنه يعتمد في جانب كبير من فكره على فكر مارسك وكوكاتش إلا أننا نراه يحاول أن يكشف عما تنطوي عليه النظرة الماركسية للأدب من نزعة علمية مستندًا في ذلك إلى الدور الإبستمولوجي الذي لعبته فكرة البنية في النظرة الماركسية للأدب.

إن الجهود التي قام بها جولدمان استطاعت أن تمد وجهة النظر الماركسية للأدب بالنظرية الإبستمولوجية التي كانت تفتقر إليها، وقدم لنا عدة مؤلفات مهمة يذكر من بينها "نحو علم اجتماع الرواية" 1964، و"بحوث ديالتيكية" 1959، و"الإبداع الثقافي في المجتمع الحديث" 1960، و"الماركسية والعلوم الإنسانية" 1970، و"العلوم الإنسانية والفلسفية" 1965

والسمة المشتركة بين أغلب هذه الأعمال هي دراسة وجهة النظر الماركسية للأدب دراسة نقدية راجيًا أن يخلص النقد الاجتماعي للأدب من طابعة الأيديولوجي، والانصراف به نحو العلم وموضوعه ونحو الارتباط بواقعه العيني، فأعاد النظر في مفهوم "الأدب الطبقي" وفرضية "الأدب يعكس المجتمع"، وعمل على تحديد موقعها الحقيقي بين الأيديولوجيا والعلم، وعلى هذا الأساس سعى جاهدًا نحو إقامة نظرة جديدة تجمع بين الدقة والصرامة من جهة، وبين الرغبة في التأسيس المنهجي من جهة أخرى، ومن هنا فقد رأى جولدمان أن المهمة الأساسية للنقد الاجتماعي للأدب اليوم هي القيام بدراسة إبستمولوجية للأدب في المجال النظري من أجل إلقاء المزيد من الضوء على كفاة المفاهيم الأدبية الماركسية، ليخلع على سوسيولوجيا الأدب شيئًا من الكيان النظري، الذي لا يزال يفتقر إليه ذلك الميدان.

وبفضل جهوده في جامعة بروكسل والمدرسة التطبيقية العليا في باريس، استطاع أن يخرج سوسيولوجيا الأدب من جمودها المذهبي، ويمضي بها نحو آفاق جديدة من البحث العلمي النظري والتجريبي مستلهمًا في ذلك بعض مبادئ البنيوية ومستعيرًا من بعض النقاد المحدثيت قبل لوكاتش ورينيه جيرار مفهوم "الجنس الروائي" ومفهوم "البطل المشكل" ومفهوم "البنية الدالة" التي سمحت له فيما بعد بإرساء دعائم نظرية للنقد السوسيولوجي للأدب.

والمصدر النظري لمفاهيم ومصطلحات الشعرية هو أعمال رومان جاكبسون (1896 - 1982) والمعلوم أنه أسس نادي موسكو للألسنية وكان أنشط أعضاء براغ لألسنية الذي ساهم في شيوع أفكار ومبادئ السكلانيين الروي. وابرز أعمال جاكبسون الأولى هي "الشعر الروسي الحديث" الذي نشره عام 1921، و"حول بيت الشعر التشكيلي" نشر عام 1923، وركز اهتمامه فيما بعد على دراسة قواعد الشعر، وعلم اللغة العام، ونظرية الإبداع.

ووضع جاكبسون مفهوم الأدبي "littérairé" مع بداية ظهور مدارس الشعرية الجديدة. وهذا المفهوم يحاول البحث عن إجابة للسؤال. ما الذي يجعل من عمل ما عملاً أدبيًا؟ وقد نشر مجموعة دراسات توضح وتطبق هذا المفهوم في ملف

بعنوان: "Essais de linguistique générale" نشره عام 1963 في دار "منتصف الليل" بباريس.

والمعروف أن جاكبسون اتجاه منذ عام 1919 إلى توضيح الفروق بين اللغة الشعرية واللغة العادية، فقد اعتبر النسيج النحوي للغة الشعرية يشكل جزءًا أكبر من قيمتها الباطنة. وفي هذا الصدد عمل على كشف العلاقة بين ترتيب الفئات النحوى والارتباط المتبادل بين العروض، وقد طبق هذا المفهوم على قصيدة بودلير المسماه (Les chats).

وقد قام بوصف هذا النص من خلال فحص النسيج النحوي له. وقد وضع مصطلح Poétique للإشارة إلى الخطاب الأدبي ونظريته وأسباب الأصالة التي توجد في العمل الأدبي.

اما المصادر النظرية لمفاهيم ومصطلحات النقد التفكيكي فترجع إلى أعمال دريدا، وجوليا كريستيفا، الأول بدا نشاطه بصدور كتابه المسمى "Grammatologie" عام 1967، والثانية أصدرت كتابًا بعنوان "la revolution du layage poétique" عالم 1974. وقبل صدرور أعمالهما أو أعمال غيرهما من أنصار هذا الاتجاه النقدي، جمع بينهما وبين غيرهم من النقاد جماعة تسمى باسم مجلة لإثم ضعثم هذه الجماعة تتجه في الحقيقة نحو نمط من العمل السياسي يعتمد على تدمير اللغة باعتبار أنها نقل رئيسي للأيديولوجيا البرجوازية التي تتسم بالوصفية والزخرفية البنيوية، والمقصود من هذا الاتجاه تأكيد انهيار البني التي أحدثت فيها اللغة الشعرية الشروح الأولى.

ودريدا في كتابع السبابق نقد الفكر العربي باعتباره فكرًا قام على أساس التمركز المنطقي بمعنى تأسيس وجوده على أساس المدلول (المعنى أو المضمون) داعيًا إلى أن يحل علم النحو محل علم السيميولوجيا وان تصبح الكتابي هي القيمة الأولى باستنادها على الظاهرة اللغوية. وتكون اللغة تولدًا ينتج عن النص.

والهدف من وراء هذه المفاهيم هو البحث عن الأثر في الكتابة بوساطة علم النحو الجديد الذي يرفض اعتبار الكتابة شيئًا ثانويًا.

ويرى دريدا أنه لا يوجد حدود بين نص وآخر ويؤسس هـذا الـرأي علـى فكـرة تداخل النصوص. فأي نص أوجزء منه يعتبره في رأيه دائم التعرض للنقل إلى سـياق آخر في زمن آخر. وعلى هذا الأساس يعتـبر دريـدا أن كـل نـص أدبـي يتشـكل مـن مجموعة من المفردات، والمفردات سابقة علـى النـص فـي وجودهـا، وتحمـل معـها تاريخها القديم أو الحديث.

ومعنى ذلك أن اي نص هو خلاصة لمجموعة من النصوص السابقة على هذا النص.

والقراءة التفكيكية قراءة حرة تقوم على فكرة عـدم وجـود معنـى ثـابت للنـص، وعدم وجود مؤلف أو مرجع للنص، وأن المعنى مفتوح وغير محدد وغير نهائي.